هل حققت المجزرة السعودية أهدافها؟

ثلاث سنوات تمر على المجزرة الرهيبة التي ارتكبها نسل آل مردخاي الصهاينة بجوار بيت الله الحرام، والقلب يعتصره الأسى لما يشاهده من موقف سلبي ودون حركة فعالة وبنحو جدي لتخليص الحرمين الشريفين من أولئك البغاة الذين احتلوا أطهر بقاع الدنيا (مكة ـ المدينة) وعاثوا فيها الفساد. والأسئلة ستبقى هي، هي تراوح مكانها ما هي الدوافع الرئيسية من هذه المجزرة؟ وهل حصدت الحكومة السعودية ثمارها المرة التي أرادتها أم لا؟ وهل ستستمر المجازر في تلك البقعة الطاهرة كما حدث في العام المنصرم باعدام ستة عشر حاجاً كويتياً؟ وما هو المستقبل المنظور للحج؟

لقد حدثت المجزرة وبأسوأ صورة من الغدر السعودي مما يجعل الإنسان يقف مذهولاً لتلك الممارسات اللا إنسانية لخدش كرامة الإنسان المسلم، كل ذلك تتمخض لعدة عوامل تلاحقت فيما بينها حتى غدت شبكة يُراد بها اصطياد الحج والحجاج لرميها في الساحة الاستكبارية واللعب بها كيفما تشاء. لقد كانت عوامل خارجية ضاغطة على الحكومة السعودية لارتكاب تلك المجزرة ولكنها تصب في مجرى توجهاتها، كما كانت هناك عوامل داخلية تسير سيراً معاكساً، ليس كما تريده السلطات السعودية تتمثل في الحالة الإسلامية الناهضة، كما أن هناك عوامل أصيلة تكمن في توجهات الثورة الإسلامية والتي انطلقت من إيران سيلاً هادراً يأخذ كل ما يمر به فارتاعت السعودية من كل ذلك فتسوج ارتياعها بالمجزرة الدامية في الجمعة السوداء. وقد كان كل من السلطات السعودية والاستكبار العالمي يطمح في أن يجني من ورائها ثماراً لتحدث تداخلاً في الأوراق المتناثرة الداخلية والاقليمية والدولية والإسلامية ثم فرز ما يصلح منها للكيد بالإسلام والمسلمين. ولكن بعد هذه الفترة القصيرة هل تحققت تلك الأحلام السعودية الاستكبارية أم لا؟.

ولا بد من الإشارة إلى أن ثلاث سنوات فترة زمنية قصيرة في عمر تحديد الملامح في التغيرات السياسية وما يلازمها من خلال ذلك الحدث البارز والطفرة النوعية السلبية في السياسة السعودية، إلا أن ذلك لا يمنعنا من محاولة قراءة بعض تلك الملامح بخطوطها العريضة من خلال المعطيات في الفترة القصيرة اللاحقة للمجزرة كما أنه يتحتم علينا عرض الدوافع التي ألقت بالسلطات السعودية في معمعة ليست هي في مستوى خوض الصراع فيها لوحدها، فلا بد من عرضها بنحو واضح حتى نلقي نظرة واقعية عليها.

على هذا العليل بدأ الهجوم

دوافع سعودية

- بعد انتصار الثورة الإسلامية في إيران وشن الحرب العراقية عليها أصبحت إيران وبعد فترة وجيزة قوة هائلة خصوصاً إذا ما قيست بإمكانيات المنطقة الهزيلة بالنسبة للناحية البشرية أو التعبئة النفسية، فليس هناك زخم لدى الجنود في عسكر الخليج للخوض مع إيران في صراع مرير تستطيع إيران الصمود فيه ولفترة طويلة نتيجة الإمكانيات التي توافرت لديها ونتيجة للطفرات المتوالية لتقدم إيران في النواحي العسكرية، فأدت هذه الأسباب مجتمعة في عدم ثقة الغرب بالقدرة السعودية لمواجهة المد الإسلامي ومن هنا خافت السعودية أن لا تواتيها الفرص لتثبت عكس ذلك وبالنحو العملي فأرادت أن تثبت للعالم الغربي الذي تقوم على مصالحه ولايران أنها قادرة في خوض أي صراع يتطلبه الدور السعودي الموكل من الغرب للوقوف أمام المد الإسلامي وإمكانياته أو على أقل التقادير أنها على استعداد للدخول في هذا الصراع وان كانت النتيجة معروفة ولو كلف ذلك كثيراً، ونجد هذا الاستنتاج جلياً في تصريح بندر بن سلطان سفير السلطات السعودية في أمريكا عندما قال إن

«المملكة دولة قوية برجالها ومقدراتها.. وأكبر الأخطاء التي يرتكبها البعض هو التقليل من شأن المملكة»، وهنا نجد مدى المرارة التي تعيشها الحكومة السعودية نتيجة بروز القوة الإسلامية في إيران فلا بد من الإثبات بعكس الأمور الواقعية، كما جاء على لسان وزير الدفاع السعودي سلطان بن عبد العزيز أن العسكر السعودي «... قوة ردع لمن حاول أن يخدش سيادة المملكة»، كما أنه في تصريح لأحد المسؤولين الأمريكيين مما دار في زيارة عبد الله بن عبد العزيز لواشنطن أنها تناولت «الأداء الرائع لقوات الأمن السعودي» فالمجزرة كانت ساحة لمقياس مدى فاعلية العسكر السعودي في قمع العزل حجاج بيت الله الحرام!

- أضف إلى ذلك أن السلطات السعودية رأت أنه وبسماحها للحجاج بالتظاهرات في مكة والمدينة أن ذلك سيعتبر تنازلاً عن قوتها ومكانتها واستصغاراً لها عن الدول الغربية ودول العالم العربي والتي ما فتئت تتبجح عليهم بهيمنتها على الأوضاع في بلادها، فلذلك أرادت أن تظهر بمظهر قوي الشكيمة أمام تلك الحكومات.

- كما أن السلطات السعودية وجدت نفسها في موقع الابتلاء بالأماكن المقدسة وما يجري فيها نتيجة الصحوة الإسلامية الكبرى واستثمار المسلمين لتلك المواقع للسير بالأهداف الإسلامية قدماً فضاقت بذلك ذرعاً خصوصاً وأن المسلمين يتعاملون في تلك الأماكن على أساس أنها شأن المسلمين، فأرادت توجيه رسالة واضحة يفهمها كل المسلمين للتنازل عن هذه الهدفية في إقامة الشعائر الإسلامية أو الامتناع عن المجيء للحج والزيارة.

- أضف إلى كل ما سبق عامل مهم جداً وهو توجيه رسالة صريحة للمسلمين الشيعة في الحجاز والذين يمثلون محور المعارضة على امتداد فترة الحكم السعودي وللمعارضة بجميع أطرافها، وكان مضمون هذه الرسالة واضحة جداً بحيث أخذ الشارع الشيعي يتداولها بمجرد وقوع المجزرة وهي أن السلطات السعودية على أتم الاستعداد لقمع أي احتمال للتحرك بنحو قاس كما حصل في تلك المجزرة دون النظر إلى الأعراف الدولية أو أي أمر آخر.

ويبقى هنا مناقشة مدى تحقق تلك الأهداف السعودية التي كانت تطمح في تحصيلها من وراء تلك المجزرة.

فبالنسبة للسبب الأول، لم تستطع السعودية إثبات قدرتها في مواجهة إيران وذلك لأنها عاشت هاجس الردود الإيرانية والإسلامية الخارجية والداخلية، فسعت بعد المجزرة لتوسيط سوريا للقيام بدور المصالح والمقرب لوجهات النظر بين الحكومة السعودية والإيرانية إلا أن تلك الوساطة لم تثمر شيئاً، أضف إلى ذلك محاولة السعودية لكسب ود إيران عندما أشاعت أنها على استعداد لدفع ديات شهداء المجزرة كما أن تصريحات المسؤولين السعوديين بين الفينة والأخرى تشير إلى ذلك كما أشارت إذاعة لندن مؤخراً إلى رغبة الملك فهد في إقامة علاقات مع إيران، وهذه الحالة من الإستقرار في العلاقات السعودية الإيرانية ومن جانب السعوديين يدل على عدم

أحجار و أسمنت تنهال على رؤوس الحجاج

قطف الثمرة السعودية في هذا الجانب.

أما بالنسبة لاعتبار المجزرة كرسالة عملية للأمة الإسلامية للتنازل عن هديفيه الحج فقد استنكر العالم الإسلامي ويصور شتى هذه الرسالة من خلال ما تطالعنا به الصحف من قيام المسلمين هنا وهناك بالتنديد بالسياسة السعودية تجاه الحج كما أن المؤتمرات الإسلامية التي تعقد بخصوص الحج خير شاهد على أن تلك الرسالة لم يقبلها المسلمون.

لكن الذي تحقق للسلطات السعودية هو تمكنها من منع الحجاج المسلمين الثوريين الذين يتبنون مسألة أن الحج منطلق لمقاومة المستكبرين واعلان البراءة منهم، فقد امتنع كثير من الحملات الكويتية من القدوم إلى مكة خوفاً من الإجراءات التعسفية السعودية ومنع كثيرون من المسلمين الباكستانيين واللبنانيين وأخيراً الفلسطينيين.

كل العوامل المطروحة سابقاً تدل على أنها داخلية وذاتية من الحكومة السعودية فتلك رواسب متأصلة في العائلة للحفاظ على ذاتها من مطالب الشعب والأمة الإسلامية.

ضغوط خارجية

«ما من دولة في الشرق الأوسط خاصة وفي العالم أجمع لا ترغب في القضاء على الثورة الخمينية وإقامة نظام حكم في إيران أكثر مرونة» كما جاء على لسان الصحفي الفرنسي «كيتز مراد» وقد جاء في تصريح وزير الداخلية نايف بن عبد العزيز «إن العالم

هكذا يعامل الحجاج

يلومنا للنجاح الذي يحققه الإيرانيون ولا يبدي اهتماماً بمبرراتنا» فكان ذلك مبرراً بنحو آخر على وأد المسيرات الإسلامية في مكة والمدينة إستجابة لتلك الضغوط.

وليس خافياً الإرتياح الذي أبدته الحكومة الأمريكية بشأن «الأداء الرائع لقوات الأمن السعودي» والذي يشير الى تخطيط مسبق بين الإدارة الأمريكية والسلطات السعودية. كما أن الحرب لم تكن بمنأى عن التأثير في القرارات السعودية والتي ترتبط بالقضايا الأقليمية والدولية والإسلامية، فبعد انقلاب الموازين في الحرب لصالح الجمهورية الإسلامية اقضت مضاجعهم قلقين على مصائرهم نتيجة تبدل الوضع فكانت المجزرة مؤشر إنذار لإيران بأن السعودية ستخوض بكل ثقلها المعركة المفروضة عليها. ولكي تزداد بؤر التوتر في جبهات القتال ليمكن بعد ذلك من استصدار إجماع خليجي يدين إيران وبالتالي ضمان الدعم العراقي المطلق ومن هنا تتعرض العلاقات الخليجية ـ الإيرانية للانفصام. كما أن ذلك سيجعل من الخليج بؤرة مشتعلة مما يبعث على كسب موقف قوي غربي لمساعدة الولايات المتحدة الأمريكية للتمركز وبشكل أكبر في الخليج ومن هنا يتحقق للسعودية حلم إسقاط إيران الدولة الفتية. ولكن هل تحققت المكاسب السعودية من خلال هذه العوامل؟

لقد توقفت الحرب الإيرانية ـ العراقية نتيجة عدة ظروف متكالبة على الثورة الإسلامية إلا أن ذلك لا يعني زوال مقاومة الحالة الإسلامية ونسيان مجزرة مكة بأي وجه من الوجوه فالذين يحملون فكر الإمام الخميني يشكلون نواة الخطر على تلك العروش والإمام قال أنها قضية لا يمكن السكوت عليها.

كما أن السلطات السعودية وإن حصلت على إجماع خليجي في فترة من الفترات لمقاومة الجمهورية الإسلامية إلا أن ذلك لم يستمر طويلاً نتيجة التفرد السعودي بالقرارات الخليجية التي لا تصب إلا في مصلحة الأسرة السعودية، فسعت الآن في إقامة متوازنة مع الجمهورية الإسلامية فالدول الخليجية باستثناء السعودية ذات علاقات جيدة إلى حد ما مع إيران مع جعل السعودية في زاوية ضيقة ولم تحقق الهدف المنشود من إشراك الدول الخليجية في الصراع مع إيران. كما أن

امريكا التي سعت في التخطيط مع السلطات السعودية لارتكاب المجزرة استخدمتها ورقة ضغط على الحكومة السعودية لضمان مزيد من التنازلات. حيث روجت وسائل الاعلام الأمريكية الرواية السعودية للمجزرة ثم بعد ذلك بدأت الإشارات إلى أن السعودية أطلقت النار على المتظاهرين مما جعل الحكومة السعودية في موقف محرج.

أسباب أخرى

وهناك جانب هام أريد تحصيله من خلال المجزرة وهو توجيه حربة للمسلمين من خلال إثارة الطائفية فالحجاج الإيرانيين شيعة واثارت وسائل الإعلام السعودي بأنهم يريدون نقل الحج الى «قم»! كما أنهم يريدون احتلال بيت الله الحرام! وفعلاً اتخذت الحكومة السعودية الخطوات التالية لذلك المسلسل خصوصاً على المستوى الداخلي. فلم يكن معهوداً أن يتحول الشيعة إلى هدف قوي وواضح في وسائل الاعلام السعودي بحيث أصبح المواطن الشيعي يعيش حرباً هوجاء ضده في عمله وحياته فغدت وسائل الإعلام تثير النعرات الطائفية، مما ولد حالة من الاحتقان وقد أخطأت السلطات السعودية عندما عزفت على هذه الأوتار التي لم تكن من صالحها خصوصاً وأن العالم الإسلامي فيه الكثير من الشيعة والأخطر من ذلك أن الحكومة تحارب من يعيش بين جوانبها ويعرف نقاط ضعفها كما أنهم يشكلون نسبة ليست بالقليلة، وقد عاشت الساحة الإسلامية أعراض تلك الهجمة خصوصاً في باكستان...

إلا أن السلطات السعودية كذلك لم تجن سوى ضرب المسمار في نعشها وجعلت نفسها في مواجهة المسلمين وشيعة البلاد على وجه الخصوص الذين لم يكن لهم أي دور يذكر في المشاركة في التظاهرات حتى توجه لهم وسائل الاعلام كيلاً من السباب والشتائم والانتقاص من مذهبهم وعلمائهم فأصبحت حالة التذمر قائمة على أشدها خصوصاً أن المواطن الشيعي استوعب درس المجزرة بأنها رسالة صريحة موجهة إليه كما هو شائع في أوساطهم، مما ولد حالة من التوجه الجماعية للمحافظة على الذات من الهجمة المقصودة لتذويب شخصيتهم فأصبح هناك التوجه الجدي في مقاومة الحكومة خصوصاً وأنها أثبتت مراراً وعبر عدة وسائل أنها في حرب دائم معهم فتكونت أنوية معارضة بشكل أقوى للمطالبة بحقوق المظلومين ومن هنا يتبين لنا أن السلطات السعودية ارتكبت خطأ فادحاً عندما أقحمت الشيعة في تلك الحملة الهوجاء وإذا ما القينا نظرة فاحصة على الساحة في الحجاز وجدنا المؤيد لهذا الرأي واضحاً جداً فالمعارضة على اختلاف توجهاتها صعدت من أعمالها تجاه السلطات وأصبحت في مواجهة مع المنظمات والأحزاب والمواطنين وبأشكال مختلفة من تفجيرات وتوزيع منشورات وغيرها. فلم يكن إذن من صالح الحكومة السعودية العزف على أوتار الطائفية وارتكاب المجزرة.

سبب الأسباب

ويبقى الهدف الأساسي والرئيس هو تحطيم الجمهورية الإسلامية بعدما اكتسحت الساحة الإسلامية بما تحمله من هموم المستضعفين وتطلعاتهم وسيبقى محوران في الساحة الإسلامية: إيران حاملة راية المستضعفين، والسعودية حاملة راية المستكبرين وقد تبين ذلك جلياً في قمة الدول العربية المنعقدة في بغداد أخيراً عندما رفضت توجيه مذكرة شديدة اللهجة لأمريكا لمساندتها لدويلة اليهود. والمحادثات الأخيرة بين إيران والسعودية اثبتت انه من المستحيل أن تقوم بينهما علاقة قائمة على أساس من المصلحة الإسلامية لما يمثلانه من قطبين متنافرين كل بمبادئه في الحين الذي ابدت فيه إيران مرونة من اجل الحفاظ على شعائر الحج الإبراهيمي الذي كان أملاً للمسلمين منذ زمن بعيد.

ومن خلال هذا الاستعراض السريع للدوافع الكامنة خلف الستار لمجزرة مكة المأساوية تتبين لنا البلادة السعودية عندما أقدمت على ارتكابها دون أن تجني من ورائها سوى ذلها وعارها وجعل المسلمين كل المسلمين في مواجهتها على نحو أكبر من ذي قبل.

على ذلك جعلتنا السلطات السعودية نفكر دائماً في اللا معقول فماذا سيجري في حج هذا العام، خصوصاً وأن السلطات السعودية على ما يبدو من بعض المعطيات مستمرة في تنفيذ سياسة القمع بخصوص الحج.